جامعة كربلاء
كلية العلوم الإسلامية
دراسات اسلامية معاصرة / العدد 40 / حزيران 2024

الحجاج البياني في كلام المختار الثقفي

Rethortical argumentation at the words of Almukhtar Althakafi

حسين لفيف ارشد
Husain Lafeef Arshd

أ.د. جاسم عبد الواحد راهي
Prof. Dr. Jasim Abdulwahid Rahi

جامعة كربلاء/ كلية العلوم الإسلامية
University Of Karbala / College of Islamic Sciences

الكلمات المفتاحية: الحجاج، المختار، البيان، الكلام، التشبيه، الاستعارة

Keywords: argumentation, Al-Mukhtar, rethortical, speech, analogy, metaphor.

الملخص:

يتناول البحث تقنيات الحجاج البياني المتمثلة بحجاجية التشبيه والاستعارة ساعياً إلى تقديم مقاربة بيانية حجاجية وكيفية استثمار طاقاتها في كلام المختار الثقفي وفاعلية ذلك كله في تحقيق الوظائف على المستوى الدلالي لعل أبرزها الغاية التأثيرية الاقناعية إلى جانب ثلة من الوظائف على مستوى البلاغة والجمال للكشف عن عينة تأريخية ثرية بالصور الحجاجية المنتجة.

Abstract:

The research deals with the techniques of graphic arguments represented by the argumentative analogy and metaphor, seeking to present a graphic argumentative approach and how to invest its energies in the words of Al-Mukhtar Al-Thaqafi, and the effectiveness of all of this in achieving functions at the semantic level, perhaps the most prominent of which is the persuasive effectual purpose, along with a number of functions at the level of rhetoric and beauty to reveal a rich historical sample Produced argumentative picture.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد واله الطيبين الطاهرين وبعد...

يعد التشبيه من أصول التصوير البياني ومصادر التعبير الفني، ففيه تتكامل الصور، وتتدافع المشاهد، ومن هنا تكمن نظرة البلاغيين إلى التشبيه بأنه التفنن بإبراز الصورة البلاغية للشكل؛ إذ يؤدي دوراً حجاجياً وإقناعيا في آن واحد، فلم تنحصر قيمته البيانية في مجال الزخرفة والزينة والصورة فحسب بل تحقق غايات حجاجية مقصودة لتضفي أنماطاً من الإقناع والاستمالة والتأثير، وبما أن الظروف المصاحبة لأدب المختار(رض) كانت تستدعي ان يكون كلامه مؤثراً بحسب طبيعة الظرف والمرحلة آنذاك لذا اقتضت طبيعة البحث أن يُقسم على مطلبين الأول: حجاجية التشبيه والثاني: حجاجية الاستعارة تلتها نتائج البحث وبعدها قائمة الفهارس وروافد البحث سبق ذلك كله بمقدمة متوسلاً بالمنهج الحجاجي لـ"بريمان" مصحوباً بوقفات تحليلية لاستكناه مكامن التأثير والاقناع والحجاج.

<u>المطلب الأول: حجاجية التشبيه:</u>

يعمد المتكلم في إبراز الصور الحجاجية عبر تسخير قدرة التشبيه الخارقة في تلوين الشكل بظلال مبتكرة وازياء متنوعة، لم تقع بحس قبل التشبيه، ولم تجربها العادة ولا تعرف كنهها إلا بلحاظ مجموعة العلاقات الفنية في التشبيه، وعند ضم بعضها لبعضها الاخر تبدو محسوسة متعارفة ذات قوة وصفية متميزة، وهنا تكمن القدرة الإبداعية للتشبيه في تكييف الصورة[1].

التشبيه لغة:

مدخل:

يعد التشبيه من أبرز الفنون البيانية التي يتكأ عليها الباحث لتحقيق العملية التواصلية عبر إنتاج صور مقصودة ترخي بسدولها على المتكلم جمالاً واستمالة وإقناعاً، وقبل الولوج في حيثيات التشبيه حري بالبحث أن يقف عند حده من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية.

التشبيه لغةً:

جاء في لسان العرب:((الشِّبه والشَّبه والتشبيه: المثل، وأشبه الشيء الشيء: ماثله، شبهتُ هذا بهذا، وأشبه فلان فلاناً. والشَبهُ والشِبه: النحاس يصبغ فيصفر، وسمىَ النحاسُ به لأنه أذا فعل به أشبه الذهب بلونه. والشبيه مصدر من شبه))[2]، إذاً فالتشبيه في اللغة هو التمثيل.

التشبيه اصطلاحاً:

الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى أو أكثر بأداة ملفوظة أو مضمرة[3]، وقد تعدد مفهوم التشبيه لدى العلماء إلا انهم لم يبتعدوا عن دلالة واحدة.

فابن رشيق القيرواني(ت 406هـ) يعرف التشبيه بأنه: ((وصف الشيء بما يقاربه ويشاكله))[4]. وفي معنى آخر يعرف التشبيه بأنه ((مشاركة أمر لآخر في معنى بأحد أدوات التشبيه لا على وجه الاستعارة التحقيقية ولا المكنية ولا التجريد))[5]

وقد كان للتشبيه الحجاجي الأثر البارز في أدبه لا سيما في خطبه التي نورد منها قوله في ذم الدنيا وبيان سرعة زوالها واضمحلال زخرفها إذ يقول: ((...وهذه الغابات الجميلة ستصبح خضرتها كأنها حمم البراكين...))[6]، وظف التشبيه الحجاجي في ثنايا الخطبة التي دار حديثها حول تصوير المختار للدنيا وكيف أنها سيأتي عليها يوم من الأيام وتنتهي بكل جمالها وما فيها من زخرف تجعل الانسان يتعلق بها وهي بحقيقتها زائلة لا محالة، فالتشبيه هنا تمظهر في عبارة ((ستصبح خضرتها كأنها حمم البراكين)) إذ شبه المختار الثقفي (رض) خضرة الأرض بالحمم الملتهبة فالمشبه هو الخضرة والمشبه به هو الحمم وأدة التشبيه هي الكاف ووجه الشبه هو تشبيه الخضرة بالحمم الملتهبة وهذا التشبيه يسمى بالتشبيه المرسل المجمل ـ وهو التشبيه الذي حذف منه وجه الشبه ـ وسر جمال التشبيه هنا التوضيح والسبب هو تشبيه المادي بالمادي وهذا التشبيه له الأثر البالغ في الخطاب حيث المقام الذي يحتاج اليه المختار الثقفي (رض) هو التأثير والاقناع والاستمالة وهذا ما حققه التشبيه هنا حيث تحول ماهو سبب من أسباب الجمال في هذه الحياة الدنيا إلى نار مستعرة وصيرورة هذا الجمال وتحوله إلى حمم وبراكين وهذا التعبير يخلق عند المتلقي والمستمع رهبة وخوف يجعله يعدل عن اتباعه الهوى واستمالته الى اتباع الحق الذي يمثله المختار وأنصاره، إذ استطاع التشبيه من تقرير حال المشبه وتمكنه في ذهن السامع بإبرازها فيما هي فيه أظهر كما كان ما اسند الى المشبه يحتاج إلى تثبيت وايضاح فنأتي بمشبه حسي قريب التصوير، يزيد معنى المشبه إيضاح لما في المشبه به من قوة الظهور والتمام، فالتشبيه

هو الذي ((اتفق العقلاء على شرف قدره، وفخامة أمره في فن البلاغة، وإن تعقيب المعاني به – يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحاً كانت او ذماً أو افتخاراً أو غير ذلك))[7]، فهو يؤدي الى إيصال المعاني الى المتلقي مما يكون سبباً في استمالة المستمع واجتلابه والتأثير فيه. ويعد التشبيه من الفنون المهمة في الكلام لأنه يقرب الصورة المقصودة للمتلقي ولذلك تجعل القارئ مدركاً لمعاني الخطاب كما عدوه من أبرز أساليب البيان وأجملها، ويعود ذلك الى ما يحمله من ميزات فهو يضفي على الصورة الموظف فيها طاقة تعبرية تأثيرية، وقوة في الأداء تؤطر بجمالية ترمي سدولها على المعنى، فتضاعف التأثير وتؤدي الصورة حينئذٍ وظيفتها المنوطة بها[8]، فالتشبيه له القابلية على التأثير في المتلقي، فعندما يأتي به الباث في الخطاب لم يأتِ جزافاً وعبثاً وإنما ليؤدي غاية حجاجية ينشدها الباث يراد لها التأثير والاقناع، فالتشبيه ((يمكن أن يكون أوسع دائرة من حيث الجمهور الذي يتأثر به، والامر ما كثر في كلام الله تعالى وكلام نبيه "صلى الله عليه وآله وسلم" وفي كلام الاقدمين والمحدثين على السواء، بل نجده في غير الكلام البليغ مما هو وليد البيئات المتعددة، وإنك لواجد في كلام العاديين من الناس تشبيهات رائعة إذا وضعت لها القوالب المقبولة كانت ذات أثر وشأن))[9].

فقد وظف المختار الثقفي (رض) هذه العبارة بعناية ودقة ووظفها توظيفاً يخلق جواً من القبول والاستمالة نتيجة لما تحمله تلك الصور من طاقة تعبيرية كبيرة تكسبها بسبب هذا الاتشاح، فهو أدى وظيفة فنية وطاقة تعبيرية يتمكن عن طريقها منشئ الخطاب جعل المخاطبين يتأثرون بمضامين الخطاب، فالتشبيه ليس وسيلة نتوسل به الى معرفة أسلوب آخر، وإنما هو مقصود لذاته، فإذا كان الهدف من علم البيان التأثير في النفوس، فإن من أكثر أبوابه تأثيراً التشبيه[10]، فالمختار الثقفي (رض) انماز بدقة بيانه وفصاحة لسانه وليس هذا بالشيء الغريب عنه فهو وليد تلك البيئة التي عرفت بفصاحتها وبلاغتها، وكما عرفنا إنه ربيب أهل البيت (عليهم السلام) واتضح ذلك عن طريق بيان سيرته إذ ترعرع في بيوتهم وفي احضانهم ومن الواضح والبين أنه تعلم منهم الكثير في هذا الباب، ومما لايخفى أثره على المتتبع اللبيب أن المختار الثقفي (رض) كان له انصار كثر ومريدين على الرغم من أن البيئة المحيطة به كانت مشحونة بالتضليل والتشويه والتسقيط بشخص المختار، فمن تمكن من التأثير وتحقيق هذا الجمع الغفير من الناس وألتفافهم حوله لابد أن يكون مرتكزاً على ركن وثيق من الفصاحة والبيان ونحن نلمس ذلك جلياً عن طريق ادبه الذي بين ايدينا إذ إنماز بفنون البيان وأبوابه التي كانت خير دليل على مناصرته واتباعه من قبل الناس في تلك الحقبة الزمنية العصيبة، وقد أدى التشبيه أثره في تحقيق غايات حجاجية نلمس أثرها جلياً في الخطاب من خلال ما نجده حاضراً في جانب آخر من نفس خطبته في ذم الدنيا أيضاً والتي ورد فيها:((... عندها سيصبح الإنسان كالنملة التي غمرها الطوفان...))[11].

لازال كلام المختار الثقفي (رض) متصلاً في خطبته في ذم الدنيا لخلق التأثير والاقناع الذي ينشده في المخاطب عبر التشبيه الذي له طعماً ومذاقاً خاصاً في التأثير، فالتشبيه حضر هنا في (الانسان كالنملة التي غمرها الطوفان)، فالمشبه الانسان والمشبه به النملة وأداة التشبيه الكاف ووجه الشبه هو الضعف الذي يحصل للنملة حين يغمرها الماء وكيف تصبح ضعيفة وذليلة لا حول لها والى قوة الى الخروج منه لما اعتراها من الهوان

والضعف نتيجة تكسر اجنحتها التي هي مصدر قوتها، فالإنسان الذي غرته هذه الدنيا وأصبح منغراً بها ومتكالباً عليها واصبح لا يكترث لعاقبة الأمور وهو قد نسى أن هذه الدنيا فانية، تأتي عليه لحظة يكون حاله كحال النملة في ضعفها وهوانها عند تعرضها للماء، فهي لحظة سيمر بها كل انسان فهي لحظة عصيبة وصعبة يجب يعد لها عدته ويكون متسلحاً بكل ما من شأنه أن يجعل منه عزيزاً لا مهاناً، فهذا التشبيه هو تشبيه مرسل مجمل، قد حقق التأثير النفسي الواضح، وطبع فكرة في وجدان المتلقي ورسمها بأشكال وألوان، أعطت قوة الشعور ويقضة الضمير واتساع الرؤية والوضوح في تلك الصورة مما جعل المتلقي أكثر استيعابا وفهماً، مما ألقى بظلاله على المتلقي وكان أدعى للتأثير والاقناع[12]، ونحن نلحظ المختار الثقفي (رض) تمكن بشكل لافت من توظيف البيان الذي تمظهر حضوره في التشبيه توظيفاً فنياً دقيقاً، حيث تحقق ما يريد ايصاله للمتلقي وهو الاقناع والتأثير، فقد حقق التشبيه بما ينماز به من جمال في تحقيق الوعظ، حيث استند على ميزات التشبيه المتنوعة والحركية في استحضار صورة داخلية الى ذهن المتلقي تكون أدعى لتأثره، وانفعاله واستجابته، وذلك لإشراكها حواسه في المقاربات المنطقية، والمقارنات والتشبيهات التي جمعت بين أطراف متباعدة وصهرتها في أتون صورة موحدة، ترتكز على معان متعددة يقصدها الخطاب، ويعمل على تقريب المعاني اللطيفة الروحية الى إدراك المتلقي عبر ربطها في علاقات اسنادية تركيبية مع جزيئات حسية تضمن انفعاليته المطلوبة[13].

ومما ورد عن أبي هلال العسكري(ت 395هـ) في هذا الباب إذ قال: ((التشبيه يزيد المعنى وضوحاً، ويكسبه تأكيداً، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه، وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية ما يستدل به على شرفه وموقعه في البلاغة))[14]، وبناءً على ما تم ذكره فالتشبيه يؤدي غايات حجاجية مقصودة في الخطاب لأجل الاستمالة والتأثير والمحاجة، فالمختار الثقفي (رض)استعمل في خطبه ورسائله هذا اللون من البيان بأعتباره كنزاً من كنوز البلاغة الموصلة للأفكار والرؤى المراد ايصالها للمتلقي من جانب، وفي الجانب الاخر استعمل آلة الحرب وهو السلاح في تحقيق أهدافه المنشودة، وللتشبيه روعة وجمال، يمكن من خلاله اخراج الخطاب الى الجلي من المعاني المراد ايصالها الى المتلقي لاقناعه واستمالته فهو وسيلة تمكن ملقي الخطاب التوسل بها الى التأثير وتحقيق الاقناع، فالتشبيه أول طريق تدل عليه الطبيعة لبيان المعنى.

وقد ورد التشبيه في خطبته التي القاها في جمع من الموالين له لإنقاذ محمد بن الحنفية بعد ان اعتقل من قبل آل الزبير ووقع اسيراً في أيديهم والتي جاء فيها:((...وقد تركوه محضوراً عليهم كما يحظر على الغنم ! ينتظرون القتل والتحريق بالنار...))[15]، فالتشبيه هنا تشبيه بليغ، فالمشبه هو محمد بن الحنفية والمشبه به هي الغنم المحظورة، وخاصية هذا التشبيه المستعمل هنا هو توضيح الأمور بطريقة صريحة وواقعية ويتم ذلك من خلال الاعتماد على المشبه والمشبه بشكل أساس وقد تم تسميته بالبليغ، نتيجة لبلاغته في وصف الجمل وتقريب الصورة التي يراد ايصالها للمتلقي، حيث عمل المختار الثقفي (رض) جاهداً في أنْ يوظف التشبيه من أجل تحقيق غايات حجاجية إقناعية في توضيح المشهد الذي كان يمر به السيد العلوي، فالصورة المستوحات من الواقع لتقريب الفكرة وايصالها، فإن محمد بن الحنفية من بيت الشرف والنجابة والرفعة والسمو، كيف اصبح حاله

بهذه الهيئة الذليلة فحاله كحال الغنم المحظورة، فالصورة المرسومة لها اثر بالغ في تحريك الرأي وخلق حالة من الوعي لدى المستمع وتثير في داخله الحماس في الدفاع والاستقتال الذي نتج بعد الحجاج والاقناع من أجل تخليص السيد العلوي الذي اصبح كالأغنام التي لا تستطيع الخروج من حضيرتها، استطاع المختار الثقفي (رض) من خلال التشبيه الذي حذف منه وجه الشبه والاداة حيث تكون الصورة أقوى وأبلغ في المشبه، وهذا النوع من التشبيه يكون ابلغ في التشبيه وأكثر تأثيراً في المتلقي، لان علم البيان، هو العلم الذي تستطيع بواسطته ومن خلال معرفته أن تؤدي المعنى الواحد الذي تريد تأديته بطرق مختلفة من اللفظ، بعضها أوضح من بعض، وإن شئت فقل بعضها أكثر تأثيراً من بعضها الاخر[16]، ويمكن لنا القول إن المختار الثقفي (رض) قد برع في هذا الجانب إذ كان مؤثراً فيمن حاججهم واستطاع محاورتهم والتأثير فيهم، فقد استطاع من توظيف تلك الملكات وتحقيق غايات كبيرة وجبارة عجز غيره من الشخصيات القيادية من تحقيقها وهي قيام دولة علوية مناهضة لدولة آل الزبير في الحجاز والامويين في الشام، فالتشبيه البليغ حقق غايات مقصودة في الخطاب من شأنها التأثير والاقناع بسبب الايضاح الذي يحققه التشبيه البليغ، فهو من أعلى مراتب التشبيه ((لان حذف الأداة ينبئ عن التطابق بين الطرفين، وحذف الوجه ينبئ عن الشمول في الصفات، فقد اجتمع فيه القوتان))[17]، ويعد التشبيه من الركائز الاساس التي اعتمدها المختار الثقفي (رض) في تحقيق ما يصبو اليه فكان البيان جزءاً مهماً وسلاحاً في المحاججة الاقناعية التي يرمي من ورائها الاقناع، فالتشبيه حقق هذه الغايات لما ينماز به من تأثير في المخاطبين فله تأثير السحر في استمالة القلوب، فصاحب البيان يوضح المشكل ويكشف عن حقيقته بلغته وبيانه[18]، وهذا التوضيح من شأنه ان يكون له الأثر البالغ في الاستماع والانصات لما يريده الباث ومنقاداً ومذعناً له، كذلك ورد التشبيه في خطبته ذات الصلة التي القاها في معرض حديثه عن محمد بن الحنفية ووقوعه اسيراً بيد الزبيريين ومما جاء فيها:((... وإن لم أسرب أليهم الخيل في أثر الخيل كالسيل يتلوه السيل...))[19]، فالمشبه هو الخيل والمشبه به سيل الماء واداة التشبيه الكاف في حين بقية وجه الشبه غير مذكور، ويسمى هذا النوع من التشبيه بالبليغ، فالتشبيه هنا كان خير معبر عن الحالة التي أراد توضيحها المختار الثقفي (رض) للمخاطبين، كما أراد إيصال تلك الصورة المعبرة الى الأعداء، فهذه اللوحة المعبرة لها اثرها وهي تحمل طاقة تعبيرية كبيرة، فعبر من خلالها عن انزعاجه وألمه جراء ما فعله الزبيريين واقدامهم على الاعتداء على حرمة السيد محمد بن الحنفية عندها أخذوه اسيراً وهذا بحد ذاته يعتبر اعتداء سافراً بحق آل البيت الكرام، ففي هذا التشبيه صورة ملفتة على عظم الامر الذي سيفعله المختار الثقفي(رض) والطريقة التي سوف ينقذ بها محمد بن الحنفية حيث وصف الخيل التي سوف يقدم بها المختار الثقفي كالسيل الذي يكون نازلاً بقوة ويجرف كل شئ امامه لما يتمتع به من قوة في الاندفاع، وهذه صورة من صور الحجاج البياني ومن خلال التشبيه اوصلها المختار الثقفي(رض) لخصومه والتي تخلق حالة من الذعر فيهم حتى قبل قدومه، فالتشبيه هنا عنصراً فنياً قوياً من عناصر الجمال في التعبير يعتمد على قوة التصوير والتمثيل والمحكاة، لذا كان من اهم اغراضه إيضاح المعنى وبيان المراد[20]، فتحقق المراد من خلال إقدام انصار المختار بهذه الصورة المرعبة للعدو وتم تخليص السيد العلوي من الاسر بالفعل، فالتشبيه ركن أساس من اركان الحجاج عند المختار الثقفي (رض) لانه يكسب

المعاني منقبة، ويرفع قدرها، ويجعل لها في القلوب هزة وارتباطاً[21]، وهذا الارتياح يخلق جواً من التفاعل بين الباث والمخاطب يجعله مدركاً للمعاني المراد ايصالها بشكل يحمل المستمع على الإذعان والقبول، وكما علمنا من سيرة المختار الثقفي (رض) أنه كان كيساً ولماحاً في دراك ذلك بفضل ما يملكه من قوة البيان وفصاحة الالفاظ، ويمكن لنا تحليل هذا التميز والتفرد الذي حضي به المختار الثقفي (رض) في استمال هذا الفن وجعله رافدا مهماً من روافد الحجاج والاقناع لديه، أن هذا الفن للخيال نصيباً كبيراً فيه، فهو يفتن حتى لا ينفق عند غاية، وإنه يعمل عمل السحر في إيضاح المعاني وجلائها، فهو ينتقل بالنفس من الشئ الذي تجهله الشئ القديم الصحبة طويل المعرفة، وغير خافٍ ما لهذا من كثير الخطر، وعظيم الأثر[22]، كذلك ورد التشبيه ايضاً في حديث المختار الثقفي (رض) في معرض حديثه عن قتلة الامام الحسين "عليه السلام" حيث قال:((...فإني بالله استعين عليهم، الحمد لله الذي جعلني سيفاً ضربهم به، ....))[23]، فالتشبيه هنا تشبيه بليغ، حيث حذف الأداة وحذف المشبه وإبقاء المشبه به، فالمختار الثقفي (رض) من خلال التشبيه أراد ارسال صورة للمتلقي مفادها أن المختار مؤيداً من الله سبحانه وتعالى في أخذ ثأر الامام الحسين عليه السلام ممن قتله وأهل بيته، فقوله جعلني الله سيفاً ضربهم به، حيث أن هذه الصورة تحمل معان ودلالات أن المختار مؤداً في كل حركة يقوم بها في هذا الطريق، وهي تحمل بين طايتها وسيلة اقناعية تأثيرية في المستمع والمتلقي بأن المختار كل حركاته وسكناته هي في عين الله ومؤيدة بتأييده، فيتحقق من خلال ذلك غاية حجاجية مقصودة من قبل الباث والمرسل، فستطاع بالفعل انزال اقسى العقوبات بقتلة الحسين وأهل بيته وبالفعل كان سيفاً مسلطاً على رقابهم، فكانت الصورة التي ارسلها من خلال التشبيه هنا بليغة ومؤدية للمعنى المراد، فالتشبيه عندما يأتي في الكلام يحقق فائدة مرجوة وغاية مقصودة إذ إنه يوسع آفاق التعبير أمام المتكلم، فيستطيع عن طريق الصورة أن ينقل ما رسم في ذهنه من معان الى السامع أو القارئ، وإذ إنه يجمع بين الايجاز وحسن البيان والمبالغة في تأكيد المعاني وتقديرها[24]، وبهذا استطاع المختار الثقفي (رض) ومن خلال هذا البيان الناصع الواضح من جعل أغلب ممن كان عدواً لأهل البيت مناصراً لاعدائهم، كيف تحول بفضل الحجج الدامغة التي أقامها المختار الثقفي (رض) في تحولهم وتبدلهم وجعلهم يؤيدون أهدافه في القصاص من القتلة، وأقامة دولة علوية بزعامته، لقد أدى التشبيه غرض التأثير والاقناع في المخاطب لما يملكه من كنوز البلاغة، وإنه يجعل الكلام واضحاً وقريباً من الافهام، فهو يجعل الكلام يدق ويلطف حتى يأتيك بما يخلب القلوب ويراقض الهام[25]، فهو يضيف للمعنى وضوحاً، ويكسبه تأكيداً، وهذا يعزز فاعليته الحجاجية في الاقناع والتأثير.

المطلب الثاني: حجاجية الاستعارة:

مدخل:

تعد الاستعارة من أهم المواضيع التي شغلت المفكريم البلاغيين والنقاد والفلاسفة قديمًا وحديثًا فقد كانت محطة للأنظار لدى مختلف التوجهات والتخصصات باعتبارها ركنا

جوهريا مكينًا في بنية الانساق الفكرية التصورية وهي احدى الدعائم الأساس التي يرتكز عليها الخطاب وسوف نأصل لمعنى الاستعارة كالاتي:

الاستعارة لغة:

يقال استعار فلان سهماً من كنانته: رفعه وحوله منها الى يده[26]، وقال الزمخشري(ت 538هـ): ((وأرى الدهر يستعيرني ثيابي، أي يأخذها مني))[27]، إذا الاستعارة في اللغة تأتي بمعنى الاخذ. قال الخليل بن احمد الفراهيدي (ت 175هـ): ((يقال: هم يتعارون من جيرانهم الماعون والامتعة، والعادية من المعاورة والمناولة، يتعاورون: يأخذون ويعطون))[28].

الاستعارة إصطلاحاً:

وقف أصحاب الاختصاص من علماء البلاغة على تعريفها بقولهم:((هي إدعاء معنى الحقيقة للشيء للمبالغة في التشبيه))[29]، وعرفها أبو هلال العسكري(ت395هـ):الاستعارة نقل العبارة من موقع استعمالها في أصل اللغة الى غيره لغرض، وذلك الغرض أما أن يكون شرح المعنى وفضل الابانة عنه أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه))[30].

وردت الاستعارة في خطبة المختار الثقفي (رض)في جمع الناس أراد تنبيههم وتحذيرهم من الانجرار خلف شهوات الدنيا وملذاتها لانها زائلة فانية ومما ورد فيها: ((والشمس والنجوم سوف ينطفئ نورها والجبال الشاهقة بكل هيبتها وشموخها سوف تصبح دكاً وستغور البحار...))[31]، فالاستعارة في جملة (الجبال الشاهقة بكل هيبتها) استعارة مكنية، فحذف المشبه به الانسان وأبقى شيئاً من لوازمه وهي الهيبة والشموخ وهذا النوع من الاستعارة يدخل في بيان التشخيص، إذ أضفى على الموجودات والكائنات صفات بشرية ((إن التشخيص . كما نعلم. هو أن نربط في علاقة إسنادية كلمتين أحدهما تشير الى خاصية بشرية، والأخرى الى جماد أو حيّ مجرد))[32]، فالاستعارة هنا بانت المعنى المراد ووضحته للمتلقي، لان المقام هنا يحتاج التوضيح والتشخيص والبيان، فالمقام مقام وعظ وإرشاد، فوصف حال الدنيا وبيان زوالها عبر هذه الصورة الاستعارية المعبرة وكيفية زوالها رغم العظمة التي يرها الانسان وما تتمتع به من زخارف تجعل الانسان يفتتن ويتعلق بها، فعبر هذه الصورة المرسومة بالطريقة الخلابة الجذابة، التي تجسم لك المعنى وتشخصه، فتنتشر ظلاله في النفس فيحدث في جوانبها حركة حية، ترهف الحس[33]، فمقام المحاججة يحتاج الى مقومات يستند عليها كل من أراد الاقناع والتأثير في هذا الموقف، فكانت بلاغة الاستعارة خير ناصر ومعين في هذا المقام لما تتماز به في إيصال المعنى بصورة مستأنسة للنفس، فالخطاب لابد أن يشتمل على المقومات التي من شأنها أن تجعل الخطاب واصلاً للمتلقي، فالاستعارة لها القدح المعلى في توضيح تلك المفاهيم وإبرازها، لانها تجعلك تحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه وتصور المنظر للعين، وتنقل الصورة للاذن، وتجعل الامر المعنوي محسوسا[34]، فكان للاستعارة دورها الفاعل والمؤثر في توليد القناعات وتحقق الاستجابة، كما وردت

الاستعارة في خطبته في محاربة الرياء والتي جاء فيها: ((... لان الرياء يدخل الميدان بثياب الدين والتقوى...))[35]، فالاستعارة هنا إستعارة مكنية، حيث شبه المختار الثقفي (رض) الرياء بالشخص الذي يرتدي ثياب التقوى والورع والزهد في هذه الدنيا، وغير خاف ما لهذه الصورة من خلق التفكر والمراجعة، وتأسيس أفكار منطقية من شأنها الارتقاء بالتفكير لكل ما من شأنه إصلاح الانسان، وقد بين الرماني في ماتتركه الاستعارة في المتلقي إذ يرجع قدرة التأثير وبلاغة التعبيرات والاستعارات الى تقديم

المعنى الى حواس المتلقي لادراك المعاني بشكل تأنسه النفس[36]، وسر جمال الاستعارة هنا التشخيص، الذي يرسم صورة متكاملة للمتلقي تبعث فيه مراجعة الأفكار والمتبنيات وتصحيحها وفقاً للحقائق الواصلة عبر البيان للوصول للهدف المنشود، فانماز المختار الثقفي (رض) بقابليته على التحكم والسيطرة على فكر المتلقي بما يملك من روعة البيان وسحر الاستعارة، فهي حققت مرتكزات حدسية فكرية خالقة خيالية تخلق من العدم صوراً جديدة ذات طبيعة جديدة لم تكن من قبل، وإنما ولدت بفعل اتحاد عناصر التجربة[37].

فقد تمكن من تحقيق جمالية بيانية تسهم في تصعيد الخطاب الحجاجي وتفعيله في النفس، فالحجاج عنده لم يكن مجيئه عبثاً وإنما كان مدروساً ومخططاً له بعناية بمنتهى الدقة، فقد استطاع من خلق تكامل على المستوى اللغوي والجمالي تكتنزه الدلالة المؤثرة في السامع، فالتنوع في أساليب البيان كان لها أثرها الواضح في تهيئة أجواء حجاجية مثالية وفقاً لما يقتضيه المقام وحال المخاطب، فحققت الكناية التأثير والاقناع لأنها عملاً فنياً يشير الى عظمة الخيال عند المبدع الذي يبعثها من الذاكرة، والى العاطفة السائدة التي تلونها، كما إنها لم تعد نسخاً للواقع بل تجاوزته الى ما يعرف بالصورة المعنوية، وبقاء أثر الإحساس في النفس بعد زوال المؤثر الخارجي، فهي لم تعد أداة للتزيين أو جزءاً يمكن الاستغناء عنه، بل يمكن عن طريقها أن نجعلها سبباً في تطوير المعاني وكشف الموضوع وتبلور الحالات والمواقف[38].

ووردت الاستعارة كذلك في خطبته في جمع من أهل الكوفة يطلب منهم ملاحقة قتلة الامام الحسين "عليه السلام" ومما ورد فيها:((يا أهل الكوفة، يا أهل الحق وأعوان الدين وأنصار الضعيف...))[39]، فالاستعارة هنا مكنية وهذا تشبيه معنوي، وسر جماها هنا هو التوضيح، أراد المختار الثقفي (رض) أن يجعل من أهل الكوفة عوناً له في تحقيق أهدافة في استئصال الفاسقين والقتلة الذين عاثوا في الأرض فساداً، فالبحث عن أسلوب مؤثر وحجاج مقنع يحتاج الى حنكة ومعرفة في كيفية إطلاق الخطاب وتوصيله الى الاذهان، ولا يخفى ما للإستعارة من جمال في توصيل المعاني الى ذهن المخاطب والمتلقي وخلق روح التفاعل والتأثر، فاستعمال هذه الاستعارات ذات الأثر الجاذب لها وقع خاص في أذن متلقي الخطاب، كما تساعده من إحضار القرائن وهذا بدوره يثير المستمع وتحرك مشاعره فتجعله يعيد التفكير، وهذا من شأنه أن يكون مدخلاً في تحقيق الاستجابة للباث، فالاستعارة تعمل نشاط فكري يقوم على دمج السياقات دمجاً قوياً قد تنمحي فيه الفوارق، وهي تقع في قلب التفكير الإنساني الذي ينهض من النقطة ذاتها التي تجسدها الاستعارة، فهي وسيلة تعبيرية شديدة الخصوصية[40].

وهذه الخصوصية جعلت لها الصدارة في خطابه الحجاجي، حيث يرى أن أثرها كالسحر في خلق جو من الاقناع عند المخاطبين، فالوظيفة الحجاجية عند المختار الثقفي (رض) ناتجة من التفكير الممنهج عبر البيان الذي يمكن

له أن يعمل عمل السحر في المخاطبين من خلال خلق صوراً جمالية غايتها التزيين ومن ثم التأثر فيتحقق الاقناع، فالمتتبع للأوضاع السياسية والدينية في تلك الحقبة الزمنية يجدها فترة مظلمة مرت بالامة الإسلامية بشكل عام، وبأهل الكوفة بشكل خاص، فالتضليل وتزييف الحقائق قائماً على إصوله مما ترك انطباعاً لا يمكن من خلاله إدراك الحقيقة ومعرفة من هم أهله، فكان لزاماً ممن أراد تغيير ذلك الواقع أن يكون عارفاً طريق الخلاص وسبيله، فكان البيان الوسيلة التي توسل بها المختار الثقفي (رض) وتمكن من خلالها من تحقيق تقدماً ملموساً في هذا الاتجاه، فالاستعارة تبدو في البيان العربي صيغة من صيغ الشكل الفني في استعمالاته البلاغية الكبرى، تحمّل النص ما لا يبدو من ظاهر اللفظ أو إبدائي المعنى، وإنما تؤلف بين هذا وهذا في عملية إبداع جديدة تظفي على اللفظ إطار من المرونة والنقل والتوسع وتضيف الى المعاني مميزات خاصة، نتيجة هذا النقل الذي قد دل على معنى آخر لا يأتي من اللفظ خلال واقعه اللغوي[41]، فالاستعارة لها أثرها البليغ في إيصال معاني الالفاظ من الباث الى متلقي الخطاب بشكل تجعله يتأمل تلك المعاني التي لم يجد بداً من الاستجابة بعد التأثر بمضامينها التي حملت له عنصر المفاجأة عبر تصوير تلك المضامين وتجسيدها فيحصل التناغم نتيجة سحرها وعذوبتها وتمكنها من النفس فتحقق المراد والمبتغى من وراء ذلك الخطاب الحجاجي الهادف والبناء في إيصال الأفكار وقبولها. كما وردت الاستعارة في أدب المختار الثقفي (رض) في حديثه مع إبراهيم بن مالك الاشتر بعد أن قتل قائد شرطة الكوفة الموالي للزبيريين ومما جاء في حديثه: ((فبشرك الله بخير! هذا طير صالح...))[42]، فالاستعارة هنا إستعارة مكنية، حيث تم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه، جاءت الاستعارة هنا معبرة عن التفائل بهذا العمل الذي قام به ابن الاشتر، فاستعمال الاستعارة بعبارة "طير صالح" تحمل معنى عميق يؤدي دوراً حجاجياً فاعلاً في نفوس الجند المقبلين على القتال وما يتبعه، النصر أو الشهادة، حملت الاستعارة هنا طاقة معبرة ودلالة موحية يراد لها تحقيق الاقناع بالنصر المؤزر على الأعداء من خلال التفائل الذي ادته الاستعارة في هذا المعنى، فحققت خلق الوعي لدى المخاطب فهي تجعله يخرج من إهابة الى الطبيعة يرى فيها نفسه، أو تتوق الطاقة البشرية الى انطلاق البركان، ورفيف الطير وتحلم بفروع الدوحة[43]، فهو تمكن من توجيه الخطاب المحمل بأنواع البيان الى المتلقي لما يتركه من أثر في النفس حيث يكون أشد تثبيتاً وأقوى في تجديد نشاطهم، فالاستعارة تحقق الفتنة والجمال في الخطاب فتكسب المعنى القوة والوضوح، فالوضوح عنصر أساس وركيزة مهمة في عملية التأثير والاقناع والمحاججة، ونلحظ تلك الأهمية بما ورد عن الجرجاني إذ يقول: ((... ومن الخصائص التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها، إنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر...))[44]، فالأحداث المتسارعة والوترية التصاعدية في مسار المختار الثقفي (رض) فلابد أن يكون مستوعباً هذا التسارع من خلال الالفاظ التي تؤدي المعنى الكثير بالقليل من اللفظ الذي يجعل متلقي الخطاب أسيراً ومدركاً لهذه الصورة البليغة التي تأثر وتجذب كل من سمعها، فقد حققت آليات الحجاج البلاغية لدى المختار الثقفي (رض) مسارات سياسية جديدة في الساحة الإسلامية كان لها الحضور الأبرز في تلك الحقبة على غرار الأنظمة السياسية الأخرى التي كان لها السطوة والحضور والخبرة في

إدارة شؤون الناس آنذاك، فحقق الغلبة والنصر على اعدائه بفضل ما تمتع به من دراية ومعرفة وبما إنماز به من قوة البيان كذلك.

النتائج

في ضوء ما سبق توصل البحث الى نتائج عدة نوجز اهمها بالاتي:

1-كشف البحث عن القيمة المعرفية التواصلية التي كان المختار الثقفي (رض) يمتلكها وظهر ذلك جلياً عبر مقولاته المختلفة في خطبه ورسائله.

2-في كلام المختار الثقفي تحشيد لتقنيات بلاغية حجاجية عالية المستوى استثمرت طاقاتها التعبيرية في تحقيق غايات ومقاصد متنوعة افضت جميعها الى انتاج بؤر حجاجية مكتنزة بالاقناع.

3-تم استثمار طاقات التشبيه الحجاجي في انتاج مستوى جمالي وبلاغيٍ عالٍ بوصفها تقنية عالية التأثير في عملية الاقناع وقيادة الوجهة الحجاجية للكلام.

4-ان اختيار التقنية الحجاجية الاستعارية كانت مدروسة بعناية وموظفة لغاية تخدم السياق وتتواءم معه فأفرزت صوراً ضاعفت دلالة البنية الكلية بانسجام تام مع باقي البنيات الاخر.

5-تظافرت الوان البيان بشكل رائع في سبيل اظهار صورة بلاغية تعبيرية مبدعة خدمت الغرض المقصود واسهمت في صوغ المعنى وتشكيله.

الهوامش:

(1) ينظر: أصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، الدكتور محمد حسين الصغير: 78.

(2) لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين بن منظور الافريقي مادة شبه: 503. 504. 505.

(3) ينظر:الايضاح في علوم البلاغة ،الخطيب القزويني ،شرح وتعليق وتنقيح الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي:6/3.

(4) العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق دكتور النبوي عبد الواحد شعلان: 194.

(5) الايضاح في علوم البلاغة والمعاني والبيان والبديع، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد (ت739هـ):37.

(6) تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري، 21/7.

(7) الايضاح في علوم البلاغة والمعاني والبيان والبديع، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد (ت739هـ):164.

(8) بلاغة الخطاب في القرآن الكريم آيات الجنة والنار إختياراً، باسم شعلان خضير: 42.

(9) البلاغة فنونها وافنانها علم البيان والبديع، فضل حسن عباس، ط11، دار الفرقان للنشر والتوزيع، 2007م، 18.

(10) المصدر السابق، 18.

(11) تاريخ الطبري:21/7.

(12) ينظر: الدعوة الإسلامية، د أحمد غلوش: 384.

(13) بلاغة الخطاب في القرآن الكريم آيات الجنة والنار إختياراً، باسم شعلان خضير:51.

(14) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري:183. 184.
(15) موسوعة التاريخ الإسلامي، محمد هادي اليوسفي الغروي: 36/6.
(16) البلاغة فنونها وافنانها، فضل حسن عباس: 13. 14.
(17) القرآن والصور البيانية، د. عبد القادر حسين: 81. ينظر: جواهر البلاغة، الهاشمي: 270.
(18) الكافي في البلاغة والبيان والبديع والمعاني، ايمن امين عبد الغني، تقديم د رشدي طعيمة، د فتحي حجازي:41.
(19) موسوعة التاريخ الإسلامي، محمد هادي يوسف الغروي: 369/6.
(20) في البلاغة العربية علم البيان، د مصطفى هدارة: 40.
(21) علوم البلاغة والبيان والمعاني والبديع ،احمد مصطفى المراغي: 227.
(22) المصدر السابق، 240.
(23) تاريخ الطبري، 57/7.
(24) علم البيان، د. بسيوني عبد الفتاح فيود: 26.
(25) التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، شرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوتي: 242.
(26) ينظر: لسان العرب، مادة: ع ي ر، 620/4.
(27) أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود مادة ع ور: 316.
(28) كتاب العين، مادة (عور)
(29) خزانة الادب ولب الالباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون: 254/1.
(30) الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم:268.
(31) تاريخ الطبري، 7/ 21.
(32) في النص الادبي . دراسة إسلوبية إحصائية، د. سعد مصلوح: 190.
(33) البلاغة فنونها وأفنانها: 218.
(34) من بلاغة القرآن، أحمد بدوي: 167.
(35) تاريخ الطبري:25/7.
(36) ينظر: الصورة الفنية في القصة القرآنية . قصة سيدنا يوسف عليه السلام إنموذجاً دراسة جمالية، بالحسيني نصبرة: 19.
(37) الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي عند العرب، جابر عصفور: 241.
(38) ينظر: الشعر والتجربة، ريشيبالد مكليش، ترجمة: سلمى الجيوشي: 81.
(39) موسوعة التاريخ الإسلامي: 6/ 412.
(40) الاستعارة المرفوضة، أحمد يوسف: 7.
(41) اصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، محمد حسين الصغير: 18.
(42) تاريخ الطبري، 7/ 20.
(43) الشعر والتجربة، ريشيبالد ملكيش، ترجمة: د. سلمى الجيوسي: 83.
(44) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني: 41.

المصادر والمراجع:

1- أساس البلاغة، جار الله أبو القاسم الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، 1998م، ط1.

2- الاستعارة المرفوضة، أحمد يوسف، ط1، 1999م، مكتبة الانجلو المصرية.

3- اصول البيان العربي في ضوء القرآن الكريم، محمد حسين الصغير، دار الشؤن الثقافية العامة، بغداد، 1986م.

4- الايضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، شرح وتعليق وتنقيح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الزهرية للتراث، القاهرة 1993م.

5- الايضاح في علوم البلاغة والمعاني والبيان والبديع، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد بن محمد (ت739هـ) ط1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

6- بلاغة الخطاب في القرآن الكريم آيات الجنة والنار إختياراً، باسم شعلان خضير، مطبعة الامام علي "ع " ط1، 2020.

7- البلاغة فنونها وافنانها علم البيان والبديع، فضل حسن عباس، ط11، دار الفرقان للنشر والتوزيع، 2007م.

8- التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، شرح الأستاذ عبد الرحمن البرقوتي، دار الكتاب العربي، بيروت . لبنان.

9- خزانة الادب ولب الالباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة 1997م.

10-الدعوة الإسلامية، د أحمد غلوش، دار الكتاب المصري . البناني، 1978م، (د.ط).

11-الشعر والتجربة، ريتيبالد مكليش، ترجمة: سلمى الجيوشي، بيروت . لبنان، 1963م.

12-الصناعتين، أبو هلال العسكري، طبعة الخانجي سنة 1320هـ.

13-الصورة الفنية في التراث النقدي البلاغي عند العرب، جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت . لبنان 1992م.

14- الصورة الفنية في القصة القرآنية . قصة سيدنا يوسف عليه السلام إنموذجاً دراسة جمالية، بالحسيني نصبرة، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2005م.

15-علم البيان، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة 2015م، ط4، 1436هـ . 2015م.

16-علوم البلاغة والبيان والمعاني والبديع، احمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط3، 1414هـ . 1993م.

17–العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القريواني، تحقيق دكتور النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1420هـ 2000م.
18–في البلاغة العربية علم البيان، د مصطفى هدارة، دار العلوم العربية، بيروت . لبنان، 1409هـ، 1989م.
19–في النص الادبي . دراسة إسلوبية إحصائية، د. سعد مصلوح، عالم الكتاب، القاهرة، ط3، 2002م.
20–القرآن والصور البيانية، د. عبد القادر حسين، دار المنار، القاهرة 1992م.
21–جواهر البلاغة، الهاشمي، دار احياء التراث العربي، يروت لبنان.
22–الكافي في البلاغة والبيان والبديع والمعاني، ايمن امين عبد الغني، تقديم د رشدي طعيمة، د فتحي حجازي، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، (د. ط).
23–لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين بن منظور الافريقي، دار صادر، ط3، بيروت، 1414هـ.
24–من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، ط3، مكتبة النهضة، مصر . القاهرة، 1950م.